مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 11 / العـدد: 02 (2023)، ص: 1426-1447

فلسفة تصوير الأم من خلال ثلاثية نجيب محفوظ

خياري دليلة [1]

[1]جامعة الجزائر 2. Dalilafac15@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/05/28 تاريخ القبول: 2023/08/23 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

يسلط المقال الضوء على الرؤية الفلسفية حول الأم و كيف صورها نجيب محفوظ من خلال ثلاثيته (بين القصرين- قصر الشوق- السكرية) لما للأم من دور في المجتمع ، حيث استطاع أن يصور الأم وفق رؤيته الفلسفية القائمة على تعظيم دور الأم فهي مثال للتضحية و العطف و الحنان فهي تسهر على خدمة أفراد أسرتها و تربية أطفالها تربية ناشئة، بدءا برعاية البنت و تهيئتها لتكون مهدا لميلاد جيل واع و متحضر ، فإن هي صلحت صلح المجتمع، و ثانيا بحكم كون الأم حاضنة لرجال عظام حماة البلاد. إن الرؤية الفلسفية حول الأم عند نجيب محفوظ تكمن في أن الإستثمار الحقيقي للأولياء و الأم بصفة خاصة تتمثل في تربية و تنشئة جيل متحضر ، و واع بدوره الرئيس في المجتمع.

كلمات مفتاحية: فلسفة- التصوير – الأم- الثلاثية- نجيب محفوظ

The article sheds light on the philosophical vision about the mother and how Naguib Mahfouz portrayed her through his trilogy (Bein al-Qasrayn - Qasr al-Shouq - Sukkariyya) because of the role of the mother in society, where he was able to portray the mother according to his philosophical vision based on glorifying the role of the mother, as she is an example of sacrifice and kindness And tenderness, as she watches over the service of her family members and the upbringing of her children, beginning with the care of the girl and preparing her to be the cradle for the birth of a conscious and civilized

generation. The philosophical vision about the mother according to Naguib Mahfouz lies in the fact that the real investment of the parents and the mother in particular is represented in raising a civilized generation, aware of its main role in society
Keywords:philosophy-photography-mother-trilogy

***المؤلف المرسل:** دليلة خياري

1. مقدمة

تعتبر ثلاثية نجيب محفوظ (بين القصرين- قصر الشوق- السكرية) من أضخم المؤلفات التي تصور بصدق واقع المجتمع المصري في فترة الخمسينيات من القرن العشرين، و التي تحمل في طياتها عدة أبعاد إجتماعية، و سياسية و فكرية و ثقافية، و التي تعبر عن رؤية الشاعر للعالم و للمرأة و الأم بصفة خاصة، و هو ما تهدف إليه هذه الدراسة التي سنحاول من خلالها تحديد فلسفة الأديب في تصوير الأم التي نالت حيزا كبيرا من الثلاثية، و عليه نطرح الإشكال التالي:

كيف جسد نجيب محفوظ الأم في أعماله الروائية ؟ و ماهي رؤيته الفلسفية حول الأم من خلال ثلاثيته؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية اتبعنا المنهج البنيوي ، للإحاطة بكل عناصر شخصية الأم في الثلاثية و المتجسدة في شخصية أمينة، حيث يتيح لنا هذا المنهج تفكيك الشخصية المحورية و كيف قام السارد بتصويرها

2. . المرأة و الإبداع الأدبي عند نجيب محفوظ :

نجيب محفوظ و علاقته بالمرأة:(رأيه في المرأة):

نجيب محفوظ عبد العزيز ابراهيم أحمد الباشا من مواليد 11 ديسمبر 1911 بالجمالية بحي الحسين بالقاهرة. (عبد العزيز، 2006، صفحة 31) ،تحصل على شهادة الليسانس في الفلسفة سنة 1934 ليتفرغ بعدها إلى العمل الروائي مع أنه كان يكتب أثناء دراسته الجامعية، فقد نشر عدة مقالات فلسفية

(شلق، 1979، صفحة 40.42) ، و تعود جذور التأليف عنده إلى يوم تحصله على البكالوريا حين اختار تخصص الفلسفة حيث انه و هو في أواخر المرحلة الثانوية كان الأدباء الذين أثروا فيه يمثلون ثورة فكرية أكثر منها أدبية على غرار طه حسين، سلامة موسى، العقاد و كذا بعض الشعراء القدامى كأبي العلاء المعري و المتنبي و ابن الرومي، فعلى ضوء تأثره بهذه الأفكار يتضح سبب اختياره للفلسفة، لكن و في أوج انهماكه في دراسة الفلسفة، اكتشف أن الأدب أهم من ذلك،" اكتشفت أن الأدب الذي اعتبره تسلية الأجازات هو أهم من ذلك، كل ما في الأمر أنني لم أكن متبينا ذلك في نفسي في غمار اندماجي في عالم الفلسفة، إلى أن تمكن الصوت الحقيقي في داخلي من أن يسفر عن نفسه بوضوح و أن يتغلب على صوت الفلسفة" (عبد العزيز، 2006، صفحة 72) لذلك اختار نجيب محفوظ الأدب بعد معاناة روحية بين الاثنين. و بعد بداية لا بأس بها في كتابة المقالات النقدية و الفلسفية في المجلات الأدبية مثل الرسالة و المعرفة و غيرها، قرر عام 1936 أن يتوقف تماما عن الكتابة الصحفية، لتكون كتاباته في الأدب فقط (عبد العزيز، 2006، صفحة 74) .

فكانت مقالته المعنونة بـ" احتضار معتقدات و تولد معتقدات" أول نتاج لقلمه و التي نشرها في عدد اكتوبر من سنة 1930 من مجلة سلامة موسى "المجلة الجديدة" و هو لم يبلغ بعد التاسعة عشرة من العمر (طه بدر، الرؤية و الأداة، نجيب محفوظ، 1984، صفحة 33.32)، لكن هذا لا يعني أن نجيب لم تكن له كتابات قبلا، بل لقد بدأت رحلته مع الكتابة مبكرة، ففي سنوات دراسته الابتدائية أعاد كتابة القصص و الروايات التي كان يقرؤها، و يعيد صياغة الأحداث فيضيف إليها و يحذف منها و يكتب اسمه على الغلاف كما كتب قصة حياته" الأعوام" مقلدا فيها طه حسين في "الأيام". و مع قرب نهاية سنوات التعليم الثانوي بدأ نوعا آخر من الكتابة عندما خرج من دائرة القراءة من القصص

البوليسية و المغامرات و دخل دائرة الفكر متأثرا بالعقاد و أحمد أمين و سلامة موسى و طه حسين و غيرهم(العناني، 2002، صفحة 69)، فانتقل نجيب من كاتب قصص بوليسية و مغامرات إلى كتابة كتب ذات توجه فكري و نقدي. و من ثمة بدأت مغامرة نجيب محفوظ الكتابية، و إذا كان كثير من الروائيين ينظرون لفن الأدب باعتباره وسيلة من وسائل المتعة بهدف التسلية و هروبا من مواجهة الواقع إلى عالم وهمي، فإن نجبب محفوظ يتميز بمحاولته تقديم رؤية صادقة لواقعه من خلال كشف هذا الواقع، و هو في ذلك لا يلجأ إلى ما لجأ إليه كثيرون من تقديم رؤية مغلوطة عن الواقع في العمل الروائي (طه بدر، الرؤية و الأداة، نجيب محفوظ،، 1984، صفحة 28).

لذلك نستطيع أن نعتبر نجيب محفوظ أو بالأحرى مؤلفاته و خاصة أعماله الروائية مرآة عاكسة للمجتمع من خلال تعريته و تشريحه للواقع من كل جوانبه، و الهدف إنساني و توعوي في ظل التطورات الحاصلة و هو ما تصوره ثلاثيته التي سنتناولها بالدراسة.

إن المرأة في نظر نجيب محفوظ هي ربة البيت التي تهتم بتربية جيدة لأبنائها ليصبحوا جيل المستقبل المعتمد عليه، يقول:"و أنا أنظر الى المرأة نظرة اعتزاز، و أنا أرى أن الحياة بدونها تصبح ناقصة باهتة لا لون لها، أنا شخصيا أفضل ست البيت لأنها تاج راس جيلي" (عبد العزيز، 2006، صفحة 244).فقد كان وضع المرأة في الفترة التي عاشها نجيب كان سيئا بل و بعيدا عن العدل و الانصاف حيث لم يكن يسمح للمرأة بالخروج للعمل لتنافس الرجل في مناصب عليا و هو الحال الذي كانت عليه النساء الجزائريات. لذلك نجد نجيب يقف مع المرأة و يعطيها حق التعلم و العمل لأن ذلك حق من حقوقها، لكن دون أن تهمل واجباتها من تربية للأولاد و الانشغال بالأمور الأسرية،"و لا شك أن تواجدها

الفعال في ظل البيت و الأولاد و الأسرة يشكل للمرأة وظيفة لا تقل عن ولايتها للوزارة" (عبد العزيز، 2006، صفحة 244)

و لشدة حرصه على المرأة كتب نجيب محفوظ مقالا يتحدث فيه عن المرأة حول موضوع "المرأة و الوظائف العامة"، تناول فيها بعض الآراء حول المرأة على غرار دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة، حيث نجد نجيب محفوظ يخلص القارئ من الانزعاج الذي يصيبه إذا ما شغلت المرأة الوظائف و المناصب بنسبة مساوية للرجل مؤكدا أن هذا اليوم بعيد المنال، كما نجده يبين النتائج الايجابية و السلبية لتحرر المرأة التي أصبحت تشغل مناصب عليا تنافس بها الرجل، أما عن النتائج الإيجابية فإن مركز المرأة سيتغير داخل الأسرة حيث تتحول من كَلٍّ على أبيها إلى مصدر رزق يساعد في إعالة الأسرة، هذا إلى جانب تغير نظرتها للزواج فتتاح لها فرصة اختيار الرجل المناسب، أما عن النتائج السلبية التي سيترتب عليه تحررها فتتقدمها تكدّر صفو السعادة الزوجية، و منافسة المرأة الرجل في الحصول على منصب شغل(العناني، 2002، صفحة 36. 37)

هكذا إذن نظر نجيب محفوظ إلى المرأة التي تريد منافسة الرجل، مبرزا الإيجابيات و السلبيات التي تنجر عن ذلك التطور، مؤكدا أن دور المرأة الأساسي هو في البيت لأنها نصف المجتمع فإذا صلحت صلح المجتمع و إذا فسدت فسد المجتمع، فالأولى للمرأة أن تهتم بشؤونها الأسرية و تكون أما صالحة، و حتى إن هي اختارت العمل خارج المنزل فيشترط عليها أن لا تهمل عملها الأساسي كربة أسرة جيدة و صالحة. معنى ذلك أن نجيب محفوظ ينظر إلى المرأة بعين تلك الأم المربية، الحنونة و العطوفة على أطفالها و زوجها لتكون مصدر سعادة لأسرتها لا مصدر تعاسة، فهو مع المرأة المتحررة بشرط أن تحتفظ بوظيفتها الأساسية داخل الأسرة، و سنتناول رأيه لها من خلال ثلاثيته.

2.2 المرأة و الإبداع الأدبي عند نجيب محفوظ

تعتبر المرأة في نظر نجيب محفوظ مصدر الإبداع سواء كانت زوجة، حبيبة ، أما أو أختا، و هي مفتاح التطور الفني و الأدبي، و أن علاقتها بالرجل عنصر جوهري في كل عمل فني، لذلك فالزاوية التي تؤخذ منها المرأة في كل عمل أدبي تصبح مقياس الكشف عن موقف الكاتب من التطور، كما تكشف وجهه الفني للمرأة، و حسب نجيب فلعل أحفل ساعات المؤلف بالنشاط هي تلك التي يعمل فيها و هو عاشق. حتى أنّ ثمة عدد كبير من الشعراء و الكتاب تحددت مصائرهم الفنية على ضوء علاقاتهم الحميمة سواء بأمهاتهم أو أخواتهم أو زوجاتهم أو محبوباتهم، هو اعتراف نجيب محفوظ ذاته في مذكراته حين يقول: " للمرأة دور واضح في أدبي من خلال واقع عشته بالفعل بيني و بين المرأة . . كقريبة أو غريبة أو حبيبة . . أو زوجة . . حيث إنها تعطي المادة الأساسية لتجربة الحياة . . و ما الفن إلا تجارب حياة .. و لا يكاد عمل لي يخلو من تفاعل مع امرأة بطريقة ما .. في الرواية.. و في الواقع .. أي في الحياة قبل أن يتحول ذلك إلى أدب" (عبد العزيز، 2006، صفحة 246. 254)

كما كشف نجيب محفوظ أن الكثير من أعماله الأدبية كتبها تحت تأثير حالة حب، سواء أثناءها أو بعدها لأن الأديب حسبه يبدع أفضل ما عنده و هو يحب، و لأنه عاش في القاهرة و طاف بكل أنحائها فقد جعله ذلك يعرف و يخابر النساء بكل أشكالهن و ألوانهن (عبد العزيز، 2006، صفحة 246).

تلك هي نظرة نجيب محفوظ للمرأة و التي انعكست بدورها على أعماله الروائية.

علاقته بأمه:

علاقة حب قوية كانت تربط نجيب محفوظ بأمه لأنه قضى جل وقته معها، و لأنه كان وحيد والديه بالمنزل، لذلك "كان "نجيب" موضع الاهتمام الكامل

من أمه، تصحبه دائما معها إذا ما خرجت لزيارة المتحف، أو لزيارة آل البيت و أولياء الله الصالحين، أو لزيارة الأهل و الشقيقات.." (العناني، 2002، صفحة 18) .

فكان تعلقه بأمه تعلقا شديدا جعله يستفيد من حنانها يقول: "مازلت أذكره و أشعر بدفئه و قد تخطيت الثمانين، كانت سيدة بيت و لم تكن موظفة... كانت صلة الأم بالأبناء قوية جدا، و الأب عادة كان على الهامش خاصة في السنوات الأولى و لا يظهر إلا وقت الأزمات، أما الأم فهي كل شيء. ساعدتني أمي كثيرا من خلال حكاياتها و عشقها للآثار، فأنا مدين لها بجانب من التكوين الفني، كانت أمي تحب الآثار و كانت تصحبني و أنا طفل لزيارة المتاحف و الأهرامات، و لأنني كنت الوحيد المتبقي في البيت كنت أزور معها الأهل و الجيران. و هكذا رأيت كثيرا من مناطق القاهرة و أنا صغير" (عبد العزيز، 2006، صفحة 56)

الأم عند نجيب محفوظ ليست فقط مصدر الحنان و العطف و إنما هي أيضا مصدر العطاء الفني و الأدبي، فصورة أمه موجودة في كل مؤلفاته إن صح التعبير حتى بعد مماتها، و اتصاله الشديد بأمه جعله يحزن عليها حزنا شديدا بعد وفاتها فقد كانت أفضل سند له طيلة حياته، و قد عبّر عن حزنه العميق لفقدان أمه من خلال هذه الأسطر " فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها في أشياء كثيرة قد لا تكون بالضرورة أشياء مادية، و لكن هو يعتمد عليها عاطفيا، لكن برحيلها يفقد سندا عظيما في الحياة، و يدرك انه قد أصبح الآن وحيدا في هذا العالم، قد يكون له أصدقاء و قد يكون له أبناء و أحفاد و لكن يعلم أن مكان الأم قد أصبح شاغرا إلى الأبد. رحيل والدتي أثر في كثيرا رغم أنني قد كنت قد تخطيت الخمسين" (عبد العزيز، 2006، صفحة 57)

و تمثل الأم في صفاتها المعنوية نموذجا نادرا في روايات نجيب محفوظ للمرأة الناجية، حيث نجدها راضية بقضاء الله و قدره كما في رواية بداية و نهاية،

فنجد نجيب يجعل من الأم امرأة مؤمنة بالله و تدفع أبناءها إلى التدين (طه بدر، الرؤية و الأداة، نجيب محفوظ، 1984، صفحة 382).

3. فلسفة تصوير الأم من خلال الثلاثية

1.3 مضمون الثلاثية

تعتبر ثلاثية نجيب محفوظ عمل روائي متميز و هي عبارة عن سلسلة مكونة من ثلاث روايات هي : بين القصرين، قصر الشوق ، و السكرية. موضوعها يرتبط بشكل مباشر بثورة 1919 و التي عاشها نجيب محفوظ طفلا وصبيا إلى أن صار شابا، فأحداث الثورة كانت جزءا لا يتجزأ من يوميات حياته بكل ما تحمله من وطنية و طموح نحو الحرية، أما المكان الذي تدور حوله أحداث الرواية فكان حي الجمالية الذي قضى فيه طفولته و صباه، فأبطال الرواية هم أهله و جيرانه، و أصدقاؤه و زملاؤه. و قد أخذت الثلاثية من وقت نجيب محفوظ أربع سنوات كاملة، حيث بدأ في كتابتها منذ عام 1948 و أنهاها شهر أبريل من عام 1952(العناني، 2002، صفحة 84. 85) أدار نجيب محفوظ أحداث ثلاثيته بالأحياء التي كان يسكنها و يعشقها، حيث كانت بينه و بين تلك الأحياء(الحسين و الجمالية) علاقة غريبة تثير فيه عواطف و مشاعر غامضة لم يتخلص منها حتى في رواياته، فكانت تلك الأحياء مسرح تجاربه و لا يشعر أنه يكتب جيدا إلا حين يكتب عن الأزقة التي كان يتردد إليها، حتى أنها سكنت ذاكرته و شغلت وجدانه فتجلى ذلك بشكل كبير في رواياته و خاصة الثلاثية (عبد العزيز، 2006، صفحة 40)،و شغل رمضان مساحة لا بأس بها في الثلاثية فقد كتب عنه مما كانت تحتفظ به ذاكرته في فترة الطفولة، "و يمكن أن أعتبر ان ما كتبته عنه في الثلاثية كان بعين الطفل نجيب محفوظ و ليس الشاب أو الرجل نجيب محفوظ" (عبد العزيز، 2006، صفحة 40)

فحين نقرأ هذا العمل الروائي الضخم نشعر و كأننا نعيش مع الشخصيات، حيث أحسن الكاتب جلب انتباه القارئ من خلال تصوير الواقع الحقيقي الذي تعيشه الأسرة المصرية دون تزييف للحقائق.

تتكون الثلاثية من ثلاث روايات (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية) و هي إحدى الشوارع و المناطق العريقة في القاهرة، تبدأ الثلاثية برواية" بين القصرين" و هو اسم أحد شوارع القاهرة القديمة، تجري أحداثها عشية الثورة المصرية سنة 1919 ، تحكي قصة حياة واحدة من الأسر المصرية في تلك المرحلة و التي تنتمي إلى طبقة برجوازية تجارية متمسكة بالعادات و التقاليد، تتكون من الأب السيد أحمد عبد الجواد و هو ذو شخصية مستبدة و أنانية حيث نجده صارما مع أفراد أسرته المتكونة من زوجته أمينة و أبنائه الخمسة، فكانت الأسرة بكاملها تخضع للأب المتسلط دون معارضة، فقد كان حريصا على أوقات الصلاة من منطلق أنه مخلص في عبادته لله بنفس مقدار إخلاصه لسطوته و جبروته.

تتحدث الرواية في جزء كبير منها عن الحياة اليومية التي تعيشها تلك الأسرة، مع الوصف الدقيق لشخصياتها،أما الزوجة فقد كانت رهينة البيت لا يسمح لها أبدا بالخروج، فالمرأة في نظر المجتمع المصري آنذاك لا تخرج من بيت الزوجية إلا لسببين، طلاقها و وفاتها. و تحكي الرواية كيف لأفراد الأسرة أن يخرجوا عن تعاليم الأب و لكن في السر فنجد مثلا الزوجة ذهبت في إحدى المرات إلى الولي الصالح- فهي تؤمن بالعفاريت- و كان المقام لا يبعد عن المنزل إلا بحوالي عشر دقائق و حين سمع الزوج ثار غضبه و كاد يطلقها، أما ياسين الإبن الأكبر فقد كان ضحية طلاق أبيه من أمه التي كانت الزوجة الأولى، فجعله الكاتب مثل أبيه يتزوج مرتين و لكنه يطلق في المرتين و يبقى شهوانيا لا يتحكم في غرائزه، أما عائشة الابنة الثانية فقد كانت تحب ضابطا شابا كان يمر كثيرا أمام بيتهم فكانت تختلس النظرات إليه من الشرفة، أما فهمي الإبن الثاني فكان كذلك يتراشق

النظرات مع بنت الجيران، تلك هي أحوال أفراد الأسرة الذين كانوا تحت سيطرة الأب الذي يبدو في الظاهر أنه حريص على صون كرامته و عائلته لكن هذه الكرامة تخفي وراءها وجها آخر و شخصية أخرى لهذا الرجل، فإضافة إلى شخصيته الجادة و الصارمة فإن له شخصية الإنسان الماجن و هذه الشخصية لا يعرفها أحد من أفراد الأسرة، كما تتناول فصول الرواية النشاط السياسي الذي يقوم به الإبن الثاني فهمي فقد كان عضوا في لجنة الطلبة و كذا في إحدى الجمعيات السرية المنتشرة إبان ثورة 1919، و لما اكتشف الأب عبد الجواد أمر ابنه فهمي ثار غضبه لانشغال ابنه بالسياسة دون أن يأخذ إذنه، فالأب لابد أن يعرف بكل صغيرة و كبيرة حتى و لو كان هو وطنيا، و على الأسرة أن لا تخرج عن طوعه بل لابد أن تطيعه طاعة عمياء، لكن مع صمود الإبن فهمي لم يقوى الأب على سلب إرادة ابنه. ثم تحكي الرواية تفاصيل و ووقائع الثورة التحريرية و كيف نجحت الثورة المصرية في تحقيق الهدف الوحيد الذي ضحى من أجله الثوار و هو الإفراج عن القائد و الزعيم السياسي سعد زغلول و رفاقه، لتعود المظاهرات ويشارك فيها فهمي و هو طالب في مدرسة الحقوق و يستشهد في الميدان، و بموت فهمي تنتهي رواية بين القصرين، تليها رواية قصر الشوق، التي تعرض حياة أسرة الأب أحمد عبد الجواد في منطقة الحسين بعد استشهاد الإبن فهمي في أحداث ثورة 1919. و تواصل الأسرة حياتها اليومية و يكبر الإبن الأصغر كمال و يرفض دخول كلية الحقوق مفضلا كلية الآداب، كما تتعرض الرواية لذكر حياة بنات السيد أحمد عبد الجواد و أزواجهن، كذلك زواج ياسين و انتقاله للعيش بالبيت الذي ورثه من أمه في قصر الشوق، و تنتهي أحداث القصة بوفاة الزعيم السياسي سعد زغلول، ثم تليها رواية السكرية، و السكرية اسم لأحد الأحياء القديمة بالقاهرة، و هو الحي الذي تدور حوله أحداث الروايه التي تبدأ من عام 1934 الى غاية 1943. و تبدأ أحداث الرواية بداية حزينة بوفاة ابني عائشة

و زوجها متأثرين بالتيفوئيد، و تتحول حياة عائشة إلى حزن و ألم فتدخن بشراهة و تشرب القهوة بلا توقف، أما أبطال الرواية فيتغيرون و هم أطفال الأسرة بعدما نضجوا و أصبحت لكل منهم أهواء و مشارب. كما تدور أحداث الثلاثية حول شخصية جديدة هي شخصية كمال عبد الجواد و التي يعتبرها نجيب محفوظ أقرب الشخصيات الروائية إلى شخصيته حيث جعله يشابهه في كثير من المواقف و الأفكار(العناني، 2002، صفحة 86). و بذلك استطاع نجيب محفوظ أن يبرز مواقفه المختلفة من خلال هذه الشخصية.

2.3 صورة الأم من خلال الثلاثية:

كثيرة هي الشخصيات النسائية التي تم ذكرها في ثلاثية نجيب محفوظ، تتقدمها **الأم أمينة** باعتبار الثلاثية تدور حولها و عائلتها، فقد احتلت الأم حيزا كبيرا من أعماله، كيف لا و هي التي ربته و جعلت منه كاتبا ذاع صيته في كل أنحاء العالم، حيث استطاع أن يصور بصدق الأم المصرية الملتزمة، و للكشف عن الصورة التي قدم لنا بها الروائي الأم أمينة نبدأ بالوصف الجسدي لها:

-الوصف الجسدي و الأخلاقي:

تبدأ رواية القصرين بالحديث عن الأم أمينة التي كانت تستيقظ مبكرا على عادتها للقيام بواجباتها المنزلية، ثم يقوم نجيب محفوظ بذكر أدق تفاصيلها الجسدية، فقد كانت في الأربعين ذات قامة متوسطة، وجهها مائل إلى الطول مرتفع الجبين و عينين صغيرتين جميلتين و عسليتين، و أنف صغير متسع عند فتحتيه، و شفتين رقيقتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، و هي ذات بشرة قمحية صافية(محفوظ، بين القصرين، صفحة 6).

لكن جمالها أخذ يزول و لم تعد كما كانت، ليس بفعل السنون و إنما بفعل المعاناة التي تكبدتها، أولا بفقد ابنها البكر فهمي، و ثانيا المشاكل التي تصل إليها من جراء طيش ابنتها خديجة و كذا عائشة " ثمة تغير أدرك أهل البيت

أنفسهم، فقد جف عود أمينة و اشتعل رأسها شيبا، و مع انها لم تكد تبلغ الستين إلا انها بدت أكبر من ذلك ...و لكن تغير أمينة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى"(محفوظ، السكرية، صفحة 811).

استعان نجيب محفوظ بالوقفة(جنيت، 1997، صفحة 112)، من خلال توقفه غير التام عن السرد من أجل وصف الأم أمينة،حيث ساهمت هذه الوقفة في تدعيم العملية السردية، فالكلمات التي وصف بها شخصيته جعلت القارئ يتمعن شخصيتها و يكتشف دورها داخل الرواية، فهي شخصية مسؤولة و متزنة، تتحمل أعباء الأسرة بدءا بالزوج و حتى الأبناء لدرجة شاب فيها شعرها كاملا قبل الأوان.

و قد كانت الأم أمينة امرأة متدينة، متمسكة بالعادات و التقاليد، و لأنها كانت تؤمن بالعفاريت فقد كانت " ... تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين،..... و لسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 7).

هكذا كان إيمان أمينة بالله أقوى في دفع البلاء و العفاريت، و ذلك راجع طبعا للبيئة التي عاشتها و الجو العائلي الذي ترعرت فيه، لذلك فقد "ضاعف من إيمانها بها أنها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه، و كان الأب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله- لحفظهم القرآن- على العالمين، فلم يكن معقولا أن تعدل بعلمه علما و لو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 74).

فكان لتدينها الدور الكبير في تنشئة أبنائها و خاصة بناتها على التربية الدينية الصحيحة سواء مع الخالق أو مع الأهل و الأقارب.

و لدرجة خوفها من العين و الحسد فقد كانت تحمي أطفالها بقراءة شيء من القرآن، و بعض التعاويذ "فكانت تحويهم بذراعيها و تغمرهم بأنفاس العطف

و تحيطهم في اليقظة و المنام بدرع من السور و الأحجبة و الرقا و التعاويذ " (محفوظ، بين القصرين، صفحة 8)

و حرصها على أولادها لم يقتصر عند صغرهم فقط، فقد كانت شديدة العناية بهم حتى كبروا و أصبحوا شبانا، فكانت حين يستعد أبناؤها إلى الخروج تتلو المعوذتين ليحفظهم الخالق عز و جل من شر كل مخلوق و هو ما تجسده رواية بين القصرين "كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، بيد أن اشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد، فلم تكن تمسك عن تلاوة:" و من شر حاسد إذا حسد" حتى يغيبوا عنها"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 30)

-أمينة: الزوجة المتفانية في خدمة زوجها:

=كانت أمينة مثالا للزوجة الصالحة المطيعة لزوجها و أرادت لبنتيها عائشة وخديجة أن تحتذيا بها حين زواجهما، و قد تلقت منذ صغرها آداب الحياة الزوجية، و قد استطاع نجيب محفوظ أن يصور لنا بصدق كيف كانت هذه الزوجة متفانية في خدمة الزوج و تعتني به بمجرد أن يدخل البيت فتهتم بكل شؤونه، من ذلك أنها اعتادت" أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 5).

و بسبب خوفها الشديد من زوجها و احترامها له في الوقت ذاته فقد كانت تطيعه طاعة عمياء، ذلك أن زوجها كان شديدا في تعامله معها، و قد أحسن نجيب محفوظ تصوير هذا الزوج حين يقول: " أنا رجل، الآمر الناهي، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة، و ما عليك إلا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك"، هكذا كان الزوج، قاسيا عديم الرحمة، يسهر إلى وقت متأخر دون أن يعير أي اهتمام لمشاعر الزوجة التي طالما تخدمه و تخاف عليه حين تسأله عن سبب تأخره ليلا، فما كان من الزوج إلا التوبيخ و الصراخ في وجهها.و قد تعلمت أمينة

من هذا الدرس أن لا تسأله إلى أين هو ذاهب و من أين هو آت " فعليها الطاعة بلا قيد و لا شرط، و قد أطاعت، و تفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره و لو في سرها، و وقر في نفسها أن الرجولة الحقة و الإستبداد و السهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 9)

و تجدر الإشارة إلى أن طاعتها لزوجا لم تنشأ فقط من خوفها منه، بل لأنها كانت إنسانة متسامحة و طيبة القلب، ثم لأن الشيء الجميل الذي جنته من زواجها هو ما أنجبته من أبناء هم قرة عينيها "و طلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة، و لم تأسف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة و التسليم، و انها لتستعيد ذكريات حياتها في أي وقت تشاء فلا يطالعها إلا الخير و الغبطة"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 9)

ما نستخلصه هو أن أمينة كانت شديدة الإيمان بالله فلم تكن من النساء المشتكيات رغم صعوبة زوجها في تعامله معها، فكانت تنظر إلى الأشياء بإيجابية تامة و لم تكن سلبية.

و لما طال بها العمر لم تتوقف أمينة عن طاعة زوجها فكانت مثلما عهدناها، و قد صورها نجيب محفوظ في أكثر من موضع و هي تسرع في خدمة زوجها بتفاني و احترام و كأنها بذلك تعوّد بناتها على السير على نهجها " ... لبثن أن سمعن دقات عصاه المعهودة، ثم تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعا في أدب. و وقف قليلا ينظر إليهن خلال أنفاسه المبهورة ثم قال:" مساء الخير" فرددن في صوت واحد:" يسعد مساك"، و سبقت أمينة إلى حجرته فأضاءتها و مضى الرجل على إثرها في هالة من وقار الشيخوخة البيضاء."(محفوظ، السكرية، صفحة 813)

هذا هو حال أمينة مع زوجها، زوجة محبة و مخلصة، و هي أرادت بذلك أن تنقل عاداتها إلى ابنتيها، و تربياهما تربية صالحة لتكونا زوجتين صالحتين و

مؤدبتين مع رجل المستقبل، و هو ما نستشفه من خلال الخطاب الذي وجهته إلى ابنتها خديجة-دائمة الشجار مع زوجها و حماتها- حين تقول " ...- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت تريني أمام والدك، فقالت بحدة:" هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟"(محفوظ، قصر الشوق، صفحة 129).

فكانت الأم شديدة النصح لبناتها كي تكن ربات بيوت مثلها تحترمن الزوج و الحماة بحكم أن نجيب محفوظ يرى أن الاستثمار الحقيقي للأولياء و خاصة الأم يكمن في تربية و تنشئة البنت تنشئة سليمة دينيا و دنيويا فمتى استقامت البنت استقام الجيل الذي وُلد من رحمها. تظهر هذه الرؤية من خلال النموذج التالي من رواية السكرية:

" رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب و تحذير حتى ابتسمت الابنة و خفضت عينيها فيما يشبه الحياء. و إذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف:

-هذا طبع آل شوكت، و هو طبع سلطاني. أليس كذلك؟!

فقالت خديجة – بلهجة ذات مغزى – و هي تضحك لتخفف من وقع كلامها:

-من سوء حظي يا سي خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطاني!

فبادرتها أمينة قائلة و قد نفد صبرها:

-حماتك لا نظير لها في النساء، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة!!" (محفوظ، قصر الشوق، صفحة 37. 38)

أمينة ربة البيت:

كانت أمينة امرأة نشيطة، حتى حين تقدم بها العمر، و قد صورها نجيب محفوظ في رواية بين القصرين كيف تستيقظ كعادتها باكرا و تقوم بأمور المنزل من تنظيف و تحضير الفطور لعائلتها، حتى انّ جاراتها كن يطلقن عليها اسم" النحلة" لنشاطها الزائد في خدمة عائلتها منذ مطلع الشمس إلى غروبها " ... كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات في البيت الكبير، و قد واظبت عليها ربع

قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال، بل في سرور و انشراح، و بنفس الحماس الذي يستفزها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم " النحلة" لدأبها و نشاطها المتواصلين"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 13. 14)

و بعد تعرضها لكسر في كتفها، ألزمها الفراش مدة ثلاثة أسابيع كانت متشوقة للقيام بالأعمال المنزلية و قد أحسن نجيب محفوظ تصوير هذا المشهد حين يصف حماسها و نشاطها "و في فجر اليوم الموعود الذي انتظرته طويلا هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفي... و نزلت إلى حجرة الفرن متداركة عادتها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 219)

و لم تكن أمينة لتقوم بواجباتها المنزلية لضرورة حتمية و إنما كانت تتفنن في خدمة عائلتها و إرضائها بما تطبخ من ألذ الأطعمة "هي هنا الأم و الزوجة و الأستاذة و الفنانة التي يترقب الجميع و الثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها، و آية ذلك انها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضل بإطرائها إلا عن لون من الطعام أحكمت صنعه و طهيه"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 20)

لكن نشاطها لم يدم بسبب مشاغل الحياة، حيث ازدادت مشاكلها حين كبر ابناؤها، " لم تعد - هي أيضا- أمينة العهد الماضي. غيرها كثيرا الحزن و التوعك. و قد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل و طاقتها الخارقة في التنسيق و التنظيف و التدبير، ففيما عدا شؤون السيد و كمال لم تكن تعنى بشيء"(محفوظ، السكرية، صفحة 813)

أمينة الأم و علاقتها بأبنائها:

كانت تربطها علاقة عطف و حنان بأبنائها حيث كانت ترعاهم منذ نعومة أظافرهم و هو ما تصوره رواية بين القصرين " ثم جاء الأبناء تباعا و لكنهم كانوا

أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا و لا يطمئن جانبا، و على العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم و جزع أن يمسهم سوء. فكانت تحويهم بذراعيها و تغمرهم بأنفاس العطف و تحيطهم في اليقظة و المنام بدرع من السور و الأحجية و الرقا و التعاويذ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته. و لم يكن غريبا، و هي منفردة بطفلها تنومه و تلاطفه، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل و انزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة و كأنها تخاطب شخصا حاضرا:" ابعد عنا، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون" ثم تتلو الصمدية في عجلة و لهوجة" (محفوظ، بين القصرين، صفحة 8)

نلاحظ أن محفوظ قد مزج بين السرد القائم على الزمن الحاضر و الخطاب المباشر المنقول حرفيا على لسان الأم أمينة، فكان أن ساهم هذا التنويع في التقنيات السردية في إبراز صفات الأمومة المليئة بالعطف و الحنان. كما جاء توظيفه للزمن الحاضر الآني على تأكيد رؤيته الفلسفية حول الأم منبع الحنان منذ الأزل و إلى أن يرث الله الأرض و ما عليها.

و تظهر علاقة الأم أمينة بأبنائها من خلال طريقة التعامل معهم، يظهر ذلك جليا في هذا النص و هي تلاطف ابنها الصغير:

" فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها و هي تقول برنتها المعهودة:

-أفي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلا:

-تعالي يا نينة، خمس دقائق فقط..

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا أمام مكتبة يلوح في وجهه الجد و الاهتمام فأخذها من يدها إلى كنبة غير بعيدة من الباب و أجلسها ثم جلس إلى جانبها و هو يتساءل:

- ناموا جميعا؟

و أدركت المرأة أنها لم تدع لتقديم خدمة عابرة و إلا ما كان هذا الاهتمام و هذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة إلى نفسها الطواعة للإيحاء و قالت تجيبه:

-ذهبت خديجة و عائشة إلى حجرتهما في ميعاد كل ليلة، أماكمال فقد تركته الآن في فراشه. "(محفوظ، بين القصرين، صفحة 138)

جاء وصف نجيب محفوظ لأمينة قائما على تقنية السرد المتداخل مع الحوار الذي دار بينها و ابنها لتأكيد العلاقة القائمة بين الأم و أحد أبنائها، علاقة قائمة على الصراحة و الصداقة، خصوصا حين ترك الروائي صوته السردي لشخصياته من خلال الخطاب المباشر القائم على الحوار كما يلي :

-إني مصغية إليك يا بني..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه و قال:

-ما رأيك فيما لو .. أعني أليس من الممكن أن ..

و توقف مترددا، ثم غير لهجته قائلا برقة و تردد و ارتباك :

-ليس لي من أفضي إليه بدخيلة نفسي إلا أنت..

-طبعا، طبعا يا بني..

ساهم هذا المشهد الحواري في تأكيد الرؤية الفلسفية لنجيب محفوظ عن الأم التي تجسد أسمى عبارات العطف و الحنان، فبالتواصل و الحوار البناء بين الآباء و الأبناء ننشء جيلا سويا يعوَّل عليه في بناء الوطن، و تتجسد هذه الرؤية من خلال أهم حدث من أحداث الرواية و المتمثل في انخراط ابنها فهمي في النشاط السياسي فقد كان عضوا في لجنة الطلبة و كذا في إحدى الجمعيات السرية المنتشرة إبان ثورة 1919، ليشترك في الثورة التحريرية و كذا اشتراكه في المظاهرات و هو طالب في مدرسة الحقوق و يستشهد في الميدان. فقد ورث خصال أمه التي اعتادت على التضحية من أجل خدمة وطنها الصغير

(الأسرة) ليأتي ابنها الأكبر فهمي و يسير على نهج والدته، و التي وافقته في مشواره الذي يسعى من خلاله إلى تحرير بلاده و دمعة الحزن في قلبها ككل أم تفرح باستشهاد ابنها في سبيل تحرير البلاد من المستعمر الغاشم و هو ما نلاحظه من خلال الحوار الذي أدراه نجيب بين الام أمينة و فهم:

" ... ثم نهض من مجلسه، منتقلا إلى جوارها فوضع يده على منكبها و قال برقة:

-أتطمئنين حين كان ينبغي الانزعاج ز تنزعجين حين ينبغي الاطمئنان! و حدي الله، زال الخطر و عاد السلام، هاهو فهمي بين يديك . . (و ضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا و عرضا، ليلا و نهارا، بلا خوف أو قلق . .

و قال فهمي جادا:

-نينة، رجائي إليك ألا تكدري صفونا بحزن لا موجب له. تنهدت . . فتحت فاها لتتكلم و لكنها حركت شفتيها دون أن تنبس. ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم نكست وجهها لتخفي عينيها المغرورقتين . . " (محفوظ، بين القصرين، صفحة 561)

كما يظهر لنا المؤلف الحب الكبير الذي تكنه أمينة لأبنائها من خلال مبادلتهم الحب و الاحترام ذاته و هو ما نلاحظه من خلال النص التالي الذي يتحدث فيه المؤلف عن ابنها الأصغر كمال" فهذه الأم يحبها أكثر من أي شيء في الدنيا و لا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة"(محفوظ، بين القصرين، صفحة 75)

و يبدو أن كمال لم يكتف بأم واحدة، حين اعتبر أخته خديجة أمًّا ثانية فقد ورثت الحنان ذاته من أمها " و هذه خديجة و هي تلعب في حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها و وخز مزاجها"

و في رواية السكرية تحاول الأم أمينة جاهدة الإصلاح بين ابنتها خديجة و حماتها " ظفرت خديجة ببغيتها فاستردت أدوات جهازها النحاسية، و هيأ لها

ابراهيم المطبخ كما رسمت، و لكنها خسرت حماتها و فتكت بأسباب المودة التي ربطت بينهما في المهد، و لم تحتمل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بابراهيم و خليل حتى تم صلح"(محفوظ، قصر الشوق، صفحة 34)

كما كانت شديدة النصح لابنتها خديجة و تنهرها عن كل سلوك سيء " فقالت خديجة – بلهجة ذات مغزى- و هي تضحك لتخفف من وقع كلامها: - من سوء حظي يا سي خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطاني. فبادرتها أمينة قائلة و قد نفد صبرها: - حماتك لا نظير لها في النساء، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة"(محفوظ، قصر الشوق، صفحة 38)

و أمينة لم تكن لتعاتب ابنتها إلا من أجل تربيتها و إصلاح ذات البين بينها و حماتها، و أن تكون زوجة صالحة، و قد أحسن المؤلف تصوير هذا الموقف الإيجابي من الأم من خلال الحوار الذي دار بين أمينة الأم و ابنها الأصغر كمال:

" – بذلت ما في وسعي و لكني لم أسلم، فلامتني طويلا على وقوفي موقف الوسيط ، و قالت لي: كان ينبغي أن تنضمي إلي كما انضمت أمه إليه. ثم و هي تتنهد لثالث مرة:

- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترينني أمام والدك، فقالت بحدة:" هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟""(محفوظ، قصر الشوق، صفحة 129).

4. خاتمة

في الختام، يمكن القول ان ثلاثية نجيب محفوظ تجسد الواقعية بامتياز ، و كذا رؤيته الفلسفية حول الأم و دورها في المجتمع حيث استطاع أن يصور الأم وفق رؤيته الفلسفية القائمة على تعظيم دور الأم التي تسهر على خدمة أفراد أسرتها و تربية أطفالها تربية ناشئة، بدءا بالبنت أساس المجتمع ، فإن هي صلحت صلح المجتمع، و الأم أيضا وفق رؤية نجيب محفوظ هي حاضنة الرجال حماة الوطن. و بذلك فإن الاستثمار الحقيقي للأولياء و الأم بصفة خاصة حسب نجيب محفوظ يكمن في تربية و تنشئة جيل متحضر ، و واع بدوره الرئيس في المجتمع. فالمرأة نصف المجتمع و كما يقول الشاعر حافظ ابراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

5. قائمة المراجع:

إبراهيم عبد العزيز. (2006). *أنا نجيب محفوظ، سيرة حياة كاملة* (الإصدار 1). جمهورية مصر العربية: نفرو للنشر و التوزيع.

جيرار جنيت. (1997). *خطاب الحكاية* (الإصدار 2). (محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، و عمر حلى، المترجمون) الهيئة العامة للمطابع الأميرية.

سلوى العناني. (2002). *نجيب محفوظ أمير الرواية العربية* (الإصدار 1). .القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب.

عبد المحسن طه بدر. (1984). *الرؤية و الأداة، نجيب محفوظ* (الإصدار 3). القاهرة: دار المعارف.

علي شلق. (1979). *نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم* (الإصدار ط1). بيروت: دار المسيرة.

نجيب محفوظ. *السكرية*. مكتبة الاسكندرية

نجيب محفوظ. *بين القصرين*. مكتبة مصر للمطبوعات.

نجيب محفوظ. *قصر الشوق*. مكتبة مصر للمطبوعات.